

- الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

للدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

- ٢٨ -

—>>>><<<<—

الفلسفة الصينية

العصر المنهجي — كونفوشيوس

مذهبه

صدر «كونفوشيوس» في فلسفة النظرية عن نفس النقطة التي صدرت عنها فلسفة عصر ما قبل التاريخ، وفلسفة «لاهو» تسيه»، والتي أشرنا إليها في حينها، وهي نقطة القول بوحدة الوجود التي تفرع عنها نشوء كائن سلبى أو يتأثر عن الكائن الايجابى المؤثر، ومن اجتماع قوى هذين الكائنين نشأت المادة، وتأثير النفس على هذه المادة وجدت الكائنات الحية التي بين السماء والأرض

غير أن «كونفوشيوس» تعمق في هذه النقطة وصيرها فلسفة جديرة بالدراسة والتحصيل، إذ أضاف إليها أن جميع جزئيات الطبيعة مشتملة على الانسجام التام الذى هو سر جمالها وتقدمها وصلاحيها للوجود، وأن هذا الانسجام ليس موجوداً في هذه الكائنات بطريق المصادفة، بل هو تنفيذ لإرادة إلهية مرسومة خطتها في منهج السماء، وأن هذا الانسجام يحكم الوضع في جزئيات الطبيعة إلى حد أنه يظهر «ديناميكياً» وأنه هو العلة في تطور الكائنات المادية والظواهر الطبيعية، ولكن كيف ولماذا كان هذا الانسجام علة لتلك التطور؟ لم يجب «كونفوشيوس» على هذا السؤال مطلقاً، لأنه عد البحث فيه فوق طاقة العقل البشرى، فوافق في هذه الناحية «لاهو» تسيه» الذى أسلفنا أنه صرح هذا التصريح أيضاً وإن كان لم يكن قد وصل إلى كشف سر هذا الانسجام وأثره العظيم اللذين وفق «كونفوشيوس» إلى كشفهما

في وقت تريد، فلولا نظرك إليها بالمشاكلة لأفقدت، ولولا تطفكك بالناسبة لأبعدت. (إلهى) لقد خاب من أنك معرفة نفسه منك، ولقد ظلم من لم يعرفك بك، وهو بك ظهر، وبى حجابك وبى حجابك استتر، وأنت الناظر بلا حركة. (إلهى) تناهوا الجاهلون في طلب معرفة حدودك وطلبوها معرفة في تيجان الملوك، فلما نظروا حدودك، نكروك. (إلهى) ناجتكم المحقون وقالوا بامبدع الأحد، من غير عدد، تختلف الأعداد بك، بقدرة منك، دعوتك فالذى عرفك منك إليك، عاد إليك. (إلهى) تمحيرت العقول عند طلبتك، أتاها (١) الأبصار في رؤيتك. (إلهى) قالوا الجاهلون في معرفتك وما تبين فلا عرفوا، (إلهى) لقد غاب من نادى سواك، ومن عرفك بمحققة المعرفة يتقن أنك دائم، ومن أفضل التناهم. (إلهى) ظهرت لهم فوق الناثر، فتوهموا أنهم حصولك بالعناصر، فأثبتوا التشبيه والتمثيل، وعدموا التزويه والتحصيل. (إلهى) عجزوا عن اثبات النفر (٢) ولم يعلموا ما حقيقة البيان من الخبر، فالنظر حجاب عنك لالك، والنظور أنت به لا (هو) فيك. (إلهى) من قال إنه لا يعرفك، فقد عدمك، ومن عبدك، من غير حدودك، فقد حال إلى غائب مدوم، فأما الذى لا تدركه الأبصار، وأما أدرك الأبصار، وأما اللطيف الخبير (٣)، فاللطيف الخبير، صورنى بالصورة المرئية، التى هي الحدود العلوية. (إلهى) بوجود معرفتك اهتديت، وبعثت المصرين عنك تباركت وتعاليت. (إلهى) كنت أنت والمكان، لأن المكان هو إشارة بالفيض وتكرير الفكر باحضار المكان، والمكان هو المركز هو الدال عليك. (إلهى) كلما ظهرت عني صورة فظهرتها أبدع على أولها اخفياً (٤) لأنقلها عني «وأنا فعال لما أريد» (٥)

هذه الأولى من (المفالات الاسماعيليه) والباقيات في الأعداد الآيات من (الرسالة)

(فارى)

(١) تاهت أو أتيهت أو أتاها وفي زائده (٢) النظر

(٣) الآية الكريمة: لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو

اللطيف الخبير (٤) كذا

(٥) القول الكريم: إن ربك فعال لما يريد

وعنده أن الانسان الملمهم هو ابن السماء الذي يحرس الصراط
السوى ويرعاه بفضلهما في جميع أحوال الوجود، وهو مشتمل
على سر إلهي عظيم. أما الحكيم المكتسب الحكمة بمجهوداته
فهو ابن الأرض الذي حمايته من الهوى والشر موكولة إلى
مجهوداته الخاص، والذي لا يعتمد في مقاومة ضعفه وفي احتفاظه
بانسجامه الطبيعي إلا على نفسه؛ فإذا نجح اقترب من درجة
الحكيم الملمهم

وعنده أن حكمة وجود الحكيم الموحى إليه هي إذاعة قانون
السماء والسر على تنفيذه وإنقاذ بني الانسان من الخروج على
الصراط السوى، وما ذلك إلا رحمة بهم وإشفاقاً عليهم من الحكمة
عن الواجب الذي لا تُنقِذُ الانسانية من الدمار والاضطراب
إلا بالحرص عليه والاحتفاظ به

مطابقة الاسماء للمسميات، أو التعريفات العامة

لا تزال الأثرية الغالبة من المثقفين والعلماء في أوروبا
تعتقد أن سقراط هو أول حكميم وضع التعريفات العامة كما صرح
بذلك أرسطو. وقد كنت أنا أحد أولئك الذين يؤمنون بهذه
الفكرة إلى أن درست «كونفيشيوس» في شيء من الدقة،
فتبين لي تبييناً يقينياً أن حكماء الصين قد سبقوا حكماء الإغريق
إلى هذه الفكرة، وأن لهم فيها نصوصاً قيمة جديرة بالإعجاب،
وأن الحكمة التي أعلن سقراط أنها تدفعه إلى هذا التحديد هي
نفسها التي وردت في نصوص «كونفيشيوس» وهي الوصول
إلى ضبط الأخلاق وتحديد الفضيلة والقبض على الحقيقة عن طريق
التطابق المحكم بين الألفاظ والمعاني أو بين الأسماء ومسمياتها،
إذ نحن نعلم أن «السوفسطائيين» لم ينجحوا في إفساد الأخلاق
العامة في عهد سقراط إلا بوساطة التلاعب بالألفاظ، فلما أراد
سقراط أن ينقذ الفضيلة حارب أعداءها بسلاح الدقة والتحديد
فتم له ما أراد. وهكذا كان منهج «كونفيشيوس» إذ أيقن أنه
لا سبيل إلى تنفيذ الواجب بدقة إلا بوضع جميع الأشياء في
نصابها، وأن هذا الوضع لا يتحقق إلا بالتطابق التام بين القوال
ومعناها، أو الألفاظ والمعاني، أو الأسماء والمسميات، وهو
في هذا يقول رداً على سؤال وجهه إليه أحد تلاميذه قائلاً:

سر على أن الشاهد لدينا هو أن كثيراً من الكائنات تتحرك
وتعمل مقودة بالهوى، فلا تنتج هذه الحركات إلا السوء والشر
والزيلة؛ فإذا بحثنا عن علة هذا الانقياد للهوى ألفتناها الحيدة
عن هذا الانسجام، فكل خضوع للقانون الطبيعي ينتج الخير
والفضيلة والتقدم نحو الكمال، وكل انحراف عن هذا النهج
ينجم عنه الشر والاضطراب، لأن الطبيعة في ذاتها ليس فيها
للشر أثر ألبتة، ولهذا كان أهم واجبات الحكيم هو محاولة رد
الانسجام إلى كل جزئية فقدته، فأتى فقدها إياه الشر والسوء.
وعلى أساس هذه النظرية بنى «كونفيشيوس» مذهبه الأخلاقي
وأعلن أن الواجب ينحصر في تنفيذ أوامر الطبيعة وتطبيق
قوانينها القويمة كما سنشير إلى ذلك فيما بعد.

وعنده أن الانسان مشتمل على قوتين كالطبيعة سواء بسواء؛
وأن كل الفروق الوجودية بين الأفراد البشرية ناجمة عن تغلب
إحدى القوتين على الأخرى، فإذا كانت الغلبة في الانسان مثلاً
للقوة الإيجابية المؤثرة، كان ذلك الانسان حكماً بالمعنى الكامل،
وإذا غلبت فيه القوة السلبية كان حكماً عادياً، وهذا النوع
الأخير يظل هكذا حتى يتعرض لمواصف الأعواء والشبهوات
المختلفة، فإذا نجا منها ظل كما كان على الفطرة أي في درجة
الحكمة العادية، وإذا غلبه الهوى فخاد به عن صراط الطبيعة
السوى نزل من درجة الحكمة العادية إلى درجة العامة الذين
يحدثون الشر والسوء.

وعنده أن الكمال يتحقق لنوعين من البشر: الأول رجل
تبدأ السماء في إلهامه الحقيقة من يوم ميلاده دون مجهود شخصي
من جانبه، وهو يحصل في البدء على ما يحصل عليه الآخرون في
النهاية، وهذا هو الحكيم الموحى إليه أو «شينج - جين».
أما الثاني فهو الحكيم الذي يعمل على كسب الحكمة ببحوثه
التواصلية، ومجهوداته المتابعة فيحصل على الحقيقة، وبها يعمل
إلى الكمال، ويسمى هذا الأخير: «كيون - تسه» وفي
هذا الصدد يقول «كونفيشيوس» في كتاب «تايو»: «إن
البعض يحصلون عليها (أي الحقيقة) عند ميلادهم، أما البعض
الآخر فانهم إما أن يتلقوها من النير وإما أن يحصلوا عليها بوساطة
مجهوداتهم وأعمالهم الشخصية^(١)»

(١) راجع كتاب «تايو» فصل ٢٠

الذى أعيش فيه . « أو « إنى لست مساوياً للحكام ، وإنما أنا أحول التشبه بهم » إلى آخر ما صرح به مما يشبه هذه العبارات ولست أدري كيف يتخذ أولئك الباحثون هذه التصريحات برهاناً على عدم فلسفة « كوفنشيوس » ولا يتخذون أمثالها من كلام سقراط برهاناً على عدم فلسفته حين نبأته كاهنة « دلى » بأنه أحكم حكماً ، الإغريق عامة ، فاستكثر ذلك على نفسه وقال : « أنا لست حكماً ، ولكنى محب للحكمة » . فلم عدوا هذا التصريح من جانب سقراط تواضعاً ومن جانب « كوفنشيوس » برهان الخلو من الفلسفة ؟ ؟

نعم إن « كوفنشيوس » أسس مذهبه على نظريات صينية عتيقة ترجع إلى عصر ما قبل التاريخ ، ولكن هل « بارمينيد » و « أمبيدوكل » و « زينون الأكبر » و « فيثاغورس » و « سقراط » و « أفلاطون » و « أرسطو » فعلوا غير هذا ؟ بل هل « ديكارت » نفسه — على تبرئه من الماضي — استطاع أن يتخلص من أسس التراث العقلي القديم ؟ كلا ، ولكن سحفاً للهوى والسطحية ، فإن جميع الأخطاء الإنسانية ناشئة منها أو من أحدها . أما الذى لاشك فيه بمد كل هذا ، فإن « كوفنشيوس » فيلسوف نظري عظيم ، وأن جميع الباحثين الأدقاء يصبون في الصف الأول من صفوف الحكماء ، لأنهم يعتمدون في ذلك على مجموعة ماله من آراء فلسفية مبتدعة كما يتطلب النقد الحديث ، وإنه أخلاقي من طراز « كانت » و « اسبنوزا » وأمثالهما من أجلاء فلاسفة العصور الحديثة

« ينبع » محمد غناب

ماذا كنت تفعل لو أنك عيّنت حاكماً على دولة ؟ « كنت أبدأ أعمالاً بأن أرد إلى كل مسمى اسمه الحقيقي » . ولما لم يفهم التلميذ هذا الجواب سأله قائلاً : وما معنى هذا ؟ فأجاب الفيلسوف بقوله : « إن الحكيم يجب أن يحتاط في تبصر من كل ما لا علم له به ، فإذا لم تتفق الأسماء مع مسمياتها بالضبط وقع الخلط في اللغة ، وإذا وقع الخلط في اللغة لا ينفذ شيء من أوامر النظام العام ، وإذا لم ينفذ شيء من أوامر النظام العام ، أهملت الحشمة واللياقة والانسجام ، وإذا أهملت الحشمة واللياقة والانسجام فقد توافق العقاب مع الخطأ ، وإذا فقد هذا التوافق ، أصبح الشعب مضطرباً لا يفرق بين موضع قدميه وموضع يديه . ولهذا يجب على الحكيم أن يضع لكل مسمى اسمه الذى هو له ، وأن يعالج كل موجود حسب التعريف الذى وضع له ^(١) »

ألم ترى معنى أيها القارئ أن فى هذه النصوص « الكوفنشيوسية » برهاناً ساطعاً على أن حكيم اليونان الأول لم يكن مبدع التعريفات العامة ، الجامعة المانعة ، ولا أول من قال بالدقة والتحديد ؟ ثم ألمت توافقنى على أن هذه نقطة هامة تضيف إلى ما كشف من مجد الشرق صفحة نثار جديدة ، وأنها لهذا جديرة بالناية والتسجيل كما أن فيها رداً آخر يضاف إلى ردودنا السالفة على أولئك الأذئاب المتفهبين الذين أنكروا على الشرق ميزة التفلسف النظرى ؟

مما قدمنا يتبين أيضاً خطأ بعض الباحثين الأوروبيين الذين سلكوا في مؤلفاتهم سبيل زرع تاج الفلسفة من فوق رأس « كوفنشيوس » ووضعوه على رؤوس : « لاهو — نسيه » و « تشوانج — نسيه » و « مي — تي » وجزموا بأن « كوفنشيوس » لم يكن فيلسوفاً ، وإنما كان أخلاقياً ، ولم يكن أخلاقياً من النوع العالي ، وإنما كان عملياً ، بل نفعياً . فأما دعواهم أنه ليس فيلسوفاً فيطلها ما أسلفناه ؛ وأما زعمهم أنه عملي أو نفعي فستدحضه حيناً نعرض لدراسة الأخلاق عنده اعتمد أولئك الباحثون في رميهم « كوفنشيوس » بالخلو من التفلسف النظرى على تصريح أثر عنه قال فيه : « إنى لم أبتدع شيئاً جديداً ، وإنما نقلت تراث الحكماء الأقدمين إلى العصر

أطلب مؤلفات
الاستاذ النشاشيبي
كتاب
الاستاذ الصريح

من : مكتبة الرشد ، شارع الفلكي (باب اللز)

من : المكتبات العربية اشرف